

فلتكن ذلة لسان وليس إلا

بقلم الكولونيل شربل بركات

في مقابلة تلفزيونية جرت الأسبوع الفائت في LBC مع الفنان منصور الرحباني شعرنا بنقل المأساة وعمق الخوف الذي لحق بالمسيحيين في لبنان لدرجة أنهم ركضوا خلف جلادهم وتعلقوا بهم كما الخراف التي تتعلق بالذئب وتزايد عليها في طلب الانتقام من خراف أخرى علّها تبقى هي على قيد الحياة. وكأن الشرق أصبح بالفعل ساحة متروكة لهؤلاء الذئاب يسرحون ويمرحون بها، يقتلون وينهبون، يستبيحون كل شيء تحت تأثير إرهابهم للناس.

منصور الرحباني ذلك الفنان المفترض بأنه أحد أعمدة الفن لا بل ضمير لبنان الحي، والإنسان المرهف الذي ساهم في القول بأن فاتفك المتسلط قد أخضعتة فتاة صغيرة "وان الظلم لا يدوم" وأن الذي يرمي السعادة للناس تزهري بيده وتعود عليه بألف كأس". منصور الرحباني هو الإنسان العظيم رأيتة في تلك الحلقة ضعيفاً حاقداً يمجذ الإرهاب وكأنه يخاف أن يطالسه ويزرع في النفوس احلاماً تبعد كثيراً عن أحلام الرحابنة السابقة فلا تأتي بالسلام المنشود ولا تعيد الحق المهذور ولا تميز بين من تعلق بالأرض فأبقاها وبين من ركب موجة لا نعرف أين ستوصلنا، وقد استساغ طريق العنف المتستر بالدين والمتطرف حتى القتل والانتحار.

فهل أن هذا الزمن هو زمن الحقد يتوج الفلسفة والقيم ويكبل الأخلاق والعواطف ويؤد التسامح والانفتاح فيضطر حتى الفنان المرهف الحس المتعالي عن الصغائر ان ينادي بالحقد شعاراً ويهاجم أديان ومعتقدات الآخرين ويزج بنفسه في مغالطات أين منها التصفيق للوالي الذي أراد توقيف الزمن ومنع التطور في "صح النوم" أو ذلك الملك الظالم الذي رحلت عنه رعبته، كما يفعل اللبنانيون اليوم، في "ناطورة المفاتيح". فهل بالفعل وصل الظلم بنا والاستبداد وحكم الأجهزة والخوف من القتلة، هذا الحد لنهرب من الواقع المرير إلى أحضان سلاخينا والمنادين بالقتل ونشر الخوف شعاراً وكم الأفواه وقهر الناس لافراغ البلاد من أهلها. فأين هو

الحق الذي ننادي به وأين هو العدل وأين هي الرحمة بل لنقل أين أصبح الإنسان؟

لقد سأل أحد المشاهدين، الرحباني، يوماً سؤالاً لم يعلق ولم يجب عليه قال له: هل ان السياسة في لبنان التي تضغط على الجميع قد ضغطت على الفن لتوصلك إلى اتباع فن السياسة لأنك على ما يبدو تهرب من الفن إلى السياسة. ولكنه لم يجب أن يسمع وأكمل على وتيرة حاقدة ليست بالتأكيد لبنانية فكيف تكون رحبانية؟

كنا نود يوماً أن نرى منصور الرحباني الإنسان يوزع علينا فلسفة المحبة التي تعمق بها عاصي وتكلم عنها الياس وأن ينشر أحلام السعادة الآتية من عين الفنان المبدع. كنا نود أن نسمع كيف أنه اعاد لنا شعر أبو الطيب المتنبي كما كان أعاد حكمة سقراط. ولكننا بعدما سمعنا "طروحاته السياسية" أغلقنا التلفزيون ولم نكمل المقابلة وانتقلنا إلى الصلاة كي يمن الله

على لبنان ببعض من عطفه ويوزع من جديد قليلاً من نوره الذي يضيء الطريق فيرتدع الناس عن تمجيد القهر وسيلة لفرض الرأي " وإضفاء لون واحد لا شريك له" على الشرق بأكمله يعيدنا إلى الصورة العتيقة القائمة، إلى الأبيض والأسود، فإما أن تكون مصفحاً لأصحاب السلطة وإما أن تصبح من الخوارج وليس لك مكان حيث تطل أيدهم.

فرحمة بلبنان ورحمة بالإنسان ورحمة بالتاريخ والفن والحس، لا تجعلوا هذه المقابلة والذي قيل فيها نقطة بارزة تلطخ صورة الرحابنة فتسيء إلى عمق ما زينوا به تراث لبنان والشرق وما لوّنوا به منطقتنا والعالم.

وإلى العزيز منصور لنعتبر ما قيل ذلة لسان وليس موقفاً يضطرك إلى المزيد من المواقف الشاذة للدفاع أو التشبث.